لائق من جميع الوجوه ! ! فما الذى يعمله ؟ ؟

ودقت الساعة الثانية ومابارحه جزعه ؛ وكان الممر مظلماً فبدا له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجهه عقب الباب . على أنه تصور فى هذه اللحظة انساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه

فأعول ثم صاح :

« عذاب الجحيم ... روزاليا كارلوفنا »

ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب متردداً ودخل ؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة فى سبات لذيذ ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ماعلى وجهها من بشاشة ، ثم انساب الى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب ، وشعر بارتياح تام وهو فى حضرة مخلوق حى ، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً

ثم قال فى نفسه :

« خل الألمانية البلهاء غارقة فى نومها ... سأجلس هنا ... وحينما يبزغ النور أرجع الى مكانى . . فالصبح يبكر فى هذه الأيام . . . »

استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر

وتأمل ! !

« أى شىء ... لما يكون المرء عصبياً ... ورجل متعلم ذكى ... لنشنق جميعاً ... إنه عار شنيع »

وعند ما تسمع إلى تنفس روزاليا كارلوفنا الرقيق عادت اليه نفسه وثاب حسه وهدأ تماماً

وفى الساعة السادسة عادت زوجه فاكسن من عملها الذى استغرق طول الليل ولما لم تجد زوجها فى مخدعه دلفت الى الحاضنة تسألها عن «فكة» للحوذى

ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً ! ! ! بصرت على السرير بروزاليا كارلوفنا غارقة فى النوم ... وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل !! ويغط غطيطاً عالياً

أما الذى قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لغيرى تصوره فهو فوق طاقتى

محمود البدوى

هاجر العانس

للسيدة وداد السكاكينى

تسألينني ياصديقتى عن كآبة «هاجر» ووجومها ، وتتساءلين ملحة عن تجافيها وإيثارها العزلة والانفراد . إنك تريديننى على أن أفضى إليك بخبرها ، وأصرح عما أعلمه عنها ؛ ولا شك أن طلبك هذا يثير فى نفسى ذكريات الطفولة ويحملنى على أن أنحدر إلى أغوار الماضى ، حين كنت أعرف هاجر فى المدرسة تلميذة فى صف الشهادة ، وكم كان يشتد فرحى حين تدخل هذه الفتاة بيتنا فى البكور لتأخذنى معها ، فان عمتى أوصتها بمرافقتى إلى المدرسة ، وكانت رحمها الله صديقة حميمة لأسرة هاجر

كانت تدق باب بيتنا دقات مستعجلة ، فأبادر إلى صدارى الأسود ، وأعلق إلى جانبى محفظة كتبى بنجاد قصير ، فاذا أسرعت هاجر فى سيرها عدوت خلفها ، فأتعثر بمحفظة كتبى التى تتدلى على جنبى أو على ظهرى ، وكنت لا أقف لاصلاحها حتى لا تتأخر هاجر عن ميعاد المدرسة فتحرمنى مرافقتها فى الطريق

وكان يعظم سرورى حين تغيب معلمتنا العجوز الشمطاء ذات النظارة التى تربطها بالخيط إلى أذنيها وتحدرها إلى أرنبة أنفها فتطالعنا بنظرها المخيف من فوقها ، كنت أمرح وأسرح حين تغيب هذه المعلمة الغاشمة فترسل الينا المديرة « هاجر » كبرى تلميذات المدرسة لتحل محل المعلمة الغائبة ، وتعلمنا الدرس فأزهو يومئذ وألهو ، وألمس بأناملى رؤوس رفيقاتى اللاتى أمامى فيلتفتن وراءهن فاذا أنا صنم لا يتحرك

هذه صورة أولى لهاجر ما تزال فى ذاكرتى جلية بينة ؛ إنها كانت غضة الإهاب ، أنيقة الثياب ، ذات وجه أسمر مجدور ، وشعر جعد أسود ، قسمته ضفيرتين كثيفتين تنوسان على كتفيها ؛ وكانت صناع اليد تغزل من الصوف أردية شتوية لأختيها سعاد ومليحة ، وقد كان أبوها قاسياً جامداً ندم على تعليمها بعد أن حازت الشهادة ، لكيلا يفتح العلم بزعمه قلبها وعينها ، فحلف ألا يعلم أختيها

ومرت الأيام فاذا مليحة وسعاد فتاتان ناهدان ، تلوح عليهما ملامح الجمال ، وتبسم لهما الحياة والشباب ، فراحتا تحلمان بالزواج ، وقد خطرت للوالدين هذه الفكرة فتمنيا تحقيقها قريباً ، وكانا يرتاحان لكل من يفاتحهما فى خطبة الفتاتين ؛ أما هاجر فكانت تضطرب أعصابها كلما رأت أبويها يسعيان لتوفير الزينة والدلال لأختيها ، ولا سيما بعد أن رأياهما تستويان على عرش الأنوثة والجمال

ولا تسألى يا عزيزتى عن أحزان هاجر حين كانت تختصها أمها بتدبير المنزل والخياطة لأختيها ، واعداد ما تستطيع من الجهاز لهما ، خشية أن تخطبا مما ويضيق الوقت عن تهيئة المعدات اللازمة فى حياتهما المقبلة

وكانت هاجر تنمو آلامها وتشتد ، وتحس الغصة تقطع نياط قلبها ، وكثيرا ماخلت إلى نفسها ، وتحدثت عن جدها العاثر عند والديها ، فتلعن الجمال الذى بدا على أختيها ، فحرمها الدلال وجعلهما تستأثران بعناية الأم واهتمام الأب

وأخذ شعورها يطغى على نفسها فلا تستطيع إلى كبته سبيلا ، ولاح الوجوم فى وجهها ، وكان تفكيرها فى دمامتها يعث فى روحها القلق والعذاب

كانت تناجى ربها حين تلجأ الى فراشها وتحاول النوم فلا يرنق فى عينيها ، فتستعرض مظاهر الاهتمام بأختيها وإهمال أمها لها فتطفر الدموع من عينيها حزناً على حياتها الجافة البغيضة . وارحماه لهاجر ! كم كانت تتكلف الهناءة والهدوء أمام والديها وأختيها فتتظاهر بالانشراح لخطبتهما !

وكان لسوء مصيرها أن تلألأ حظهما وتكاثر الأخطاب ، ففى عصر يوم جاء بيتهن ثلاث نسوة فاستقبلتهما الأم وهاجر بملابس البيت وأوعزت الأولى الى سعاد ومليحة بأن تتزينا بأحسن ما عندهما من اللباس الجديد وتتضمخا بأزكى العطور ، وما استقر المقام بالسيدات حتى أقبلت مليحة وسعاد وكأنهما عروسان ليلة الزفاف ، فلما رأينهما بهرتاهن وعلقت بهن أنظارهن ، فتجاذبن أطراف الحديث بسهولة وسرعة كأنهن صديقات العمر ، وبعد قليل طلبت إحداهن من الفتاتين شربة ماء ، ولم يكن بها ظمأ ولا حاجة الى تقع غلة ، بل كان مرامهن جميعاً ، أن يرين انقلابهما بالمشى وانتقال أرجلهما على الأرض ، وأن يمعن النظر فى طولهما وحركاتهما

كل هذا حدث وهاجر المسكينة جالسة الى جانب أمها تنظر الحظ يضحك لأختيها ويقهقه ، وتفكر فى نفسها فترى حظها عابساً مكفهراً ، ثم أخذت تطالع فى عيون الخاطبات ومضات الافتتان والاعجاب بأختيها ، فلم يسعها البقاء فى الغرفة فخرجت منها خشية أن تعى ارادتها وتستحيل كآبة نفسها دموعاً كاوية فتفضح وجومها وآلامها

وآن ذهاب السيدات فقمن يودعن الأم والفتاتين بالسلام والتقبيل ، فلثمن ثغرى سعاد ومليحة ليشممنهما فيعلن إذا كانت فيهما رائحة تكره ، وعانقنهما لينشقن إبطيهما لعلهما تعرقان ، وهصرنهما الى أجسامهن ليحسسن هل هو عظم ناتم أم لحم رهو لطيف ، وكانت الأم والبنتان يشيعن الزائرات بمنتهى المجاملة والاغراء

كانت هذه الزورة المأنوسة يوم سعادتهن المشهود ، فما أغلق الباب خلف السيدات حتى انثنت الأم الى ابنتيها الجالستين تدعو الله لهما بفتح البخت ومجىء النصيب السعيد ، وأن يقيض لهما زوجين من أحسن الرجال وأغناهم ، ثم سكتت إذ شعرت أنها استرسلت فى الدعاء لهما دون هاجر فقالت وهى تشير الى غرفتها وأنت يا «هاجر» الله لا ينساك يا حنونتى » !

بعد أسبوعين كنت ترين يا صديقتى فى إصبعى سعاد ومليحة خاتمى الخطبة ، وكنت أتردد على بيتهما لأساعد الأم وهاجر فى اعداد الجهاز ، اما هاجر الكئيبة فكانت ترنو بعينيها الى الخاتم الجاثم فى يد أختها فيحز فى روحها الشعور المؤلم بالحقيقة الراهنة ، فتجاهد حسها وتكابد العذاب فى مقابلة ما تعانيه من قلق واضطراب لئلا يقال : إن غمامة من الغيرة والحسد تخيم على نفسها فتسىء الى سمعتها ، وبرغم ذلك كله كانت تنتابها من حين لآخر نزوات من السخط ، فتدعى بأنها تبرم بأعمال البيت المرهقة واستعجال الأهل فى تهيئة الجهاز بوقت حرج قريب

لقد تزوجت الأختان ويعلم الله كيف حضرت هاجر عرسيهما ، إنها لم تسمع الغناء بأذن واعية ، ولا أبهت للرقص ، ولا ذاقت من صفوف موائد الحلوى

لم تحقد هاجر على أختيها وإنما كان فى قلبها غضب على الأيام كالنار فى الحشا تتمنى لو أن الله خلقها جميلة فاتنة أو خلقها ذكراً

* * *

أصبحت هاجر وحدها فى البيت مع أمها وأبيها ، وقد جاوزت الثلاثين فكانت تعيش فى نضال دائم بين الأمل والقنوط ، وتتساءل بحرقة وحيرة عما تتوقع من الأيام وهى تمر وشيكة عجلى ، أيشفق الحظ عليها وإن تقدمت سنها ، أتهيئ الأقدار لها حياة زوجية كأختيها ؟ ألا يوجد بين الرجال من يؤثر جمال الخلق والنفس على جمال الجسم والوجه ؟ فتزدحم فى مخيلتها صور من الأحلام والآمال تكبح جماح نقمتها وتبعث فى نفسها قليلاً من الاطمئنان ، ثم تقوم الى كتبها فتواسيها بحوثها وتسليها وتبحث فيها عن مآسى الحب والحياة ، ولبثت ردحاً من الزمن تساورها الأمانى برغم ما كان يبعدها من الواقع عن تحقيقها فتلمست فى هذه الظاهرة الجديدة لوناً من العزاء والجمام

لقد صبرت هاجر بضع سنين انقلب عزاؤها بمرور الأيام ثورة نفسية أليمة جعلتها غريبة الأطوار قليلة الكلام ، فأهملت العناية بألبستها وتسريح شعرها الذى عدا عليه الشيب كما أنها هجرت الاكتحال والصباغ وغارت عيناها وبرز جبينها المستدير وبدا فى وجهها الشاحب ما يبدو للمراهق الطرير

عاشت هاجر البائسة فى هذه الحقبة القصيرة يغمرها يأس عاصف وتصدمها الحقيقة الواقعة ، ثم عبثت يد السآمة برغبتها فى المطالعة فأعرضت عنها ونشدت السلوة فى التنزهات القريبة

كانت أمها تشهد اضطرابها وتديم التأمل والتفكير فيها ، وتطالع فى عينيها أمارات القلق والنقمة فتحس فى نفسها عذاب الضمير لأنها كثيراً ما حالت دون خطبتها بشتى المعاذير ، فكانت ترد أخطابها دون علمها ؛ وكانت هاجر إبان ذلك فى ميعة العمر وريق الشباب ، فأدركت الأم أن أنانيتها الحمقاء هى التى كانت تسول لها الازدراء بفتاتها الكبرى كلما أسرعت بها الأعوام حتى آثرت أن تبقيها عزبة لخدمة شيخوختها ، ولولا أثرتها وإهمالها لكانت هاجر مثل أختيها زوجاً سعيدة وأما حنوناً

وطغى على روح الأم شعور التندم ، وران عليها الغم والاكتئاب ، فأحبت أن تكفر عن خطيئتها بتوفير الخدمة والمداراة لهاجر ، وترغيبها فى ممارسة التعليم الخاص فى بيتها وزيارة صديقاتها

واستمرت السنون فى سيرها فمات أبوها ولم يترك لها ما يؤمن معيشتها ، وبقيت أمها عندها ، أما أختاها فشغلهما عنهما الزوج والأولاد ، وكان لكل منهما حماة غاشمة لئيمة ، لا ترتاح لزيارة الأم والأخت لها ، فأهملت المتزوجتان أمهما لئلا تعصف فى بيتهما عواصف السوء والأحقاد

وفى جو هذا العيش القاتم الخانق كانت هاجر تناقش نفسها فى مصيرها فرأت من الحكمة وفصل الخطاب أن تحترف التعليم فعينت فى المدرسة التى نشأت فيها وثقفتها

كان بين هاجر العانس ومديرة المدرسة دالة ومودة ، فكانت تستشف فى أحاديث هاجر حسرة ومرارة وتبرما بتكاليف الحياة ، فتنفس عنها — بعطفها ولطفها — بعض ما يحتدم فى نفسها من ضيق وانقباض

وعهد فى المدرسة إلى هاجر بتعليم العربية لبعض الصفوف الابتدائية ، فكانت شديدة العناية بتعويد التلميذات حسن الالقاء وتجويده ، وكلما آنست منهن تقدما ونجاحا أوصتهن بالمثابرة على لهجتهن التى أخذنها عنها ، إذ كان أملها القديم الذى غدا أوهن من بيت العنكبوت يعاودها الفينة بعد الفينة ، ويوقظ فيها ما رقد من رجاء فى الزواج ، فتقول للتلميذات : حافظن على لهجة الالقاء فربما لا أعود اليكن فى العام القابل

جالت المديرة مساء يوم أرجاء المدرسة وراقبت صفوفها ، فوقفت بباب صف سمعت فيه لغطا ولغوا ، فاقتحمته وهى تظن أن ليس ثمة معلمة فيه ، وشد ما شدهت حين رأت هاجر تحدق بنظرها فى الأفق البعيد دون أن تنتبه لوجودها

تقدمت اليها المديرة بلطف وابتسام ، وسألتها : فيم تفكرين يا هاجر ؟ فأجابت : إننى أتأمل هذه الطفلة الجالسة ههنا ، وأشارت اليها ثم أردفت قائلة :

انظرى ياسيدتى مآسى الدهر ومهازله ؛ إننى أفكر فى أم هذه الطفلة ، فلقد كانت تلميذتى !!؟

(دمشق) وداد سكاكينى